دار الوطن
٢٨٢

وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها

إعداد الشيخ
أحمد الحفيز

مركز خدمة المتبرعين بالكتاب
الرياض -ص.ب ٣٣١٠ -ت/٤٧٩٢٠٤٢ -ف/٤٧٢٣٩٤١

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين. . . أما بعد:

فيا أخي المسلم.. إن أعظم النعم.. استشعار النعم وإكبارها، ومعرفة المنعم المتفضل، والقيام بشكره وذكره، وإن نعم الله في خلقه لا يحصيها محصٍ مهما تكلفه. ولا يعدها عادٌّ مهما قيّده.. ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾. [إبراهيم: ٣٤]. وَكَمْ هِيَ النِّعم السابغة والمِنَن المتوافرة التي تتغشاها وتغشانا وتصبحنا وتمسينا، فيا ربنا ما أحلمك وأعلمك وأكرمك، أنلتنا من فضلك وأسبغت علينا من نعمك، ودفعت عنا من الشرور والبلاء ما لا يقدر عليه إلا أنت سبحانك. فأوزعنا شكر

نعمتك، ووفقنا لفعل مرضاتك، وأوصلنا إلى نوالك وهباتك، فبأي لسان نتحدث، وبأي قلبٍ نتعرف، وبأي جوارح نُسبّح، ونحن المقصرون المفرطون، فإن شكرنا فمنك، وإن اعترفنا فبفضلك، وإن ذكرنا فبتسخيرك وتعليمك، فلا إله إلا الله، كم نحن في نعمك نتقلب، ونضحك ونلعب، الجوارح مسخرة، والعقول معلمة، والصحة جمال حياتنا وزاد عيشنا، بها نتسلى عن الأحزان، وفيها نتقوى على الأقران، فنأكل حتى الشبع، ونشرب حتى الرّي، ولا ينسى لذة ذلك ويزيله إلا أحمال اللذائذ المتعاقبة من نوم مريح، وبيت فسيح، ولسان فصيح، وولد صبيح، فالأرزاق تأتينا، والراحات تنسينا، ننام على بساط النعمة ومجالس السمو والدعة، وغيرنا ينام على دوي الرصاص وأزيز الطائرات وصوت المدافع، نستيقظ مثقلين بالأحلام لا أرق ولا قلق، وغيرنا

ينام نومة طائر يفزعه الخوف ويقتله الرعب، لا نائم ولا مستيقظ، ننام وأولادنا على فراش مثير، غرف مستقلة، استقلوا لذاتهم وحظوا بما يشتهون ليس منهم ما يشتهي ويشرب ويحتسي، يهرول برجليه، ويمسك بيديه، وينادي ويخاطب بلسانه، يتحرك بطلاقة ويلبس بلباقة، ويسافر أسفاره، ويزاول بصحة وعافية تجارته وأعماله، فهل من مبادرة بالأعمال الصالحة، واستشعار لهذه النعمة قبل أن تنقلب إلى ضدها، ويعجز عن فعل ما ينفعه بل يتحسر على تضييعه، ولهذا جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «**بادروا بالأعمال ستًّا: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدجال، والدابّة، وخاصة أحدكم، وأمر العامة**». وفي الترمذي عنه ﷺ أنه قال: «**بادروا بالأعمال سبعًا: هل تنتظرون إلا إلى فقر مقفر، أو غني مطغ، أو مرض مفسد، أو هرم مفند، أو موت**

مجهز، أو الدجال، فشر غائب منتظر، أو الساعة، والساعة أدهى وأمر».

قال ابن رجب - رحمه الله تعالى -: «والمراد من هذا أن هذه الأشياء كلها تعوق عن الأعمال فبعضها يشغل عنه إما في خاصة الإنسان؛ كفقره وغناه ومرضه وهرمه وموته، وبعضها عام؛ كقيام الساعة، وخروج الدجَّال وكذلك الفتن المزعجة».

أيها المسلمون: إنَّ العافية في البدن، والصحة في العقل نعمة كبيرة ومنحة إلهية لعبده؛ ليقوم بشكرها وتسخيرها لطاعته وعبادته.

فما أجمل العافية وأحسنها لمن يقدرها حق قدرها، لمن يوظفها للعبادة، واسألوا أهل البلاء عن نعمة العافية التي فقدوها، يتمنون أن يدفعوا كل ما يملكون ولا يبقوا لأنفسهم شيئًا وتعود إليهم عافيتهم، فهذه المستشفيات تخبركم، والمصحات تنبئكم عن الأنين والصراخ والتأوه والتوجع والقلق والأرق في حالات

كثيرة وأهوال غريبة، ولله في خلقه شؤون، فماذا يشاهد الزائر والمتأمل؟ إنه يرى مجموعة من المرضى شكايتهم واحدة، وعللهم متعددة. فهذا رجل كبير مفقود ولا عنهم منشود، وغيرنا خائف في مكانه، يعد أولاده قبل نومه ثم ينام خائفًا وجلاً، ويستقيظ على ضغط الكرىٰ ومرارة الألم، ولا يفكر إلا في حياته وحياة أولاده فلا جمع ولا إكثار، وإنما هو الكفاف والصبر والجوع والمسغبة والضيق والقهر، فهل لقلوبنا من حياة؟ وهل في قوارع الدهر مزدجر؟ وهل لأسير النعمة من وثوبٍ وإياب؟ فلا إله إلا الله، يبتلى فيها بالنعماء والضراء، والخير والشر على أسرار من الحكم وألطاف من العبر.

فيا ليتنا نقدر ما جمعنا، وندرك ما علمنا، ونفقه ما أنعم به علينا؛ لنتدارك الغفلة ونحتاط في النقلة.

وقد أرشد إلى ذلك النبي ﷺ بقوله: «**اغتنم خمسًا قبل خمسٍ: شبابك قبل**

هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك» أخرجه الحاكم وصحَّحَه ووافقه الذهبي.

فالصحة والعافية أفضل عطاء بعد الإسلام واليقين، ولا يعرف قدر هذه النعمة إلا من حرمها أو حرم شيئًا منها. ولكن أين النفوس الوقّافة؟! والقلوب المتعبرة؟! والأفئدة الشاكرة؟! لترى حجم هذه النعمة وعمق أثرها في الحياة. ولهذا بيَّن النبي ﷺ خسارة وغبن من لم يعرف قدر هذه النعمة وتجاهلها بقوله ﷺ: «**نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة، والفراغ**» أخرجه البخاري.

فالصحة والعافية، الأصل فيهما سلامة المحل من العوارض والغِير؛ ليكون أهلاً للعمل والبذل والعطاء، فإذا اعتل المحل؛ قعد عن العمل، ونكل عن البذل وربما صار كَلاًّ على غيره لا يعتمد على نفسه، ولا يقضي ما يريد قضاءه، ولا يصل إلى

بغيته بل هو قعيد قصيّ، مكبل معطل، بعد أن كان يمشي في الهواء الطلق، ويسبّح في أغمار بحر هائج، يذهب كيف يشاء، ويقضي حوائجه بخفاء، يأكل في السن تعطلت جوارحه، وهجم المرض عليه فأقعده أسيرًا محتاجًا لغيره يتخاطب بلغة العين أو الحركة، يتنفس ببطء، أو بمساعدة الأجهزة.

لا يمسك بولاً، ولا يحسن استنجاءً؛ بل يُقَلَّبُ كالخرقة بين أيدي الممرضين فلا إله إلا الله، ما أجمل العافية!!!.

وهذا شاب في عمر الزهور في لحظة تهور انحرفت به سيارته ففقد عقله في غيبوبة دائمة، وانكسرت فقرات ظهره فهو طريح الفراش في غرفة المساعدة والملاحظة، والأجهرة لا تفارقه لحظة واحدة فأين القوة والنشاط؟ أين الفتوة والشباب؟ أين الصحة والعافية؟ فلا إله إلا الله، كم له فينا من عبرة لو تأملناها!!!.

وهذه شابَّة وسيمة قسيمة يعرض لها

مرض السرطان، فيخترق جسمها، ويتلاعب بجمالها، وينغص نومها، ويتساقط شعرها، ويغير ملامح وجهها فذهبت الملاحة والبهاء، وحل بها الداء والبلاء، فصارت تنتظر الموت في كل لحظة وتشاهده، فلا إله إلا الله، أين الجمال والكمال؟ أين النعمة والدلال؟ لقد أمرّ ذلك كله وخز الألم ولسع المرض، وذهاب العافية، ولكن الصابر على مرِّ الآلام مبشر محبوب، وموفق محظوظ، يتمنى أهل العافية في الدنيا منزلته يوم القيامة؛ لما يرون من إكرام الله له، وفي المستشفى عالم آخر يئن تحت وطأة الألم، ويسهر على ضربات الوجع، شمسهم غائبة، وآمالهم مرتحلة، وأحوالهم متماسكة، لا يسليهم إلا زيارة محب، وحديث صديق، ونصيحة واعظ، الهدية تخفف معاناتهم، والزيارة تسكن آلامهم، والتسلية تجفف دمعاتهم السائبة، فلا إله إلا الله، ما أجمل العافية

وأحلاها!! يرون الزائرين يدخلون ويخرجون، ويبيعون ويشترون، ويضحكون ويأملون، وهم طريحو الفراش أسيرو السرير، فيرون الصحة تاجًا على رؤوس هؤلاء الأصحاء، وما أرخص الدنانير في شراء ذلك التاج لو كانت تأتينا به، فلا إله إلا الله.

يا أصحاب الصحة والعافية: يا أصحاب القوة والنشاط، يا أصحاب الأمن والأمان؛ اعتبروا وتذكروا وارجعوا واستغفروا فما بين الصحة والمرض إلا حدوث الاعتدال، وما بين القوة والضعف إلا خيانة الجوارح، وما بين الأمن والخوف إلا ترك الطاعة ونسيان الآخرة، فلم تكونوا أحسن من غيركم، ولن تكونوا أحسن منهم إلا إذا شكرتم بألسنتكم وعملتم بجوارحكم، وصدقتم بقلوبكم، فهذا للنعم مهر، وللحفاظ عليها قيد.

حقوق الطبع محفوظة لدار الوطن